القصص الديني

الحلقة الثانية

قصص السيرة

خديجة بنت خويلد

عبد الحميد جودة السحار

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم ﴾ .

(قرآن كريم)

١

شَبَّ محمد حتى بلغَ الخامسةَ والعشرين ، وقد اشتهرَ أمرُهُ فى مكّة ، وعرَفَ النّاس فيه النزَّاهة ، وطهارةَ الذمَّة ، والعِفَّة ، والأمانة ، فسمَّوه « الأمين » . وفى ذاتِ يومٍ كانت مَكّةُ تستعدُّ لخروج تجارةِ خديجةَ بنتِ خُوَيْلد ، وكانت خديجةُ من أشرافِ قريش ، ومن أغنيائِها ؛ كانت تستأجرُ الرِّجالَ للخروجِ فى تجارتِها ، وتُقرِضُ التُّجارَ الأموالَ ليُشاركوها فى تجارتِها ، وفى أرباحِها ، حتى تضمَنَ أن يُخلِصوا لها .

وفى ذلك اليوم قابلَ أبو طالبٍ محمَّدا ، فقال له :

ـــ أنا رجلٌ لا مالَ لى ، وقد اشتدَّ الزمان ، وأقبلتْ علينا سِنونَ مُنْكَرة ، وليس لنا تجارة ، وهذه

قوافل قومِك قد حضر خروجُها إلى الشام ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِد ترسل رجالا من قومِك فى قوافِلها ، فيتّجرونَ لها فى مالِها ، ويُصيبون منافع ، فلو جئتَها وعرضْتَ نفسكَ عليها ، لأسرعَتْ إليك ، وفضَّلتْك على غيرِك ، لما يبلغُها عنك من طهارَتِك .

فقال محمد :

ــ فلعلها أن تُرسلَ إلىَّ فى ذلك .

فقال له عمُّه أبو طالب : إنه يَخاف أن تُولّىَ غيرَه ، إذا لم يَعْرِضْ نفسه عليها .

ولكنَّ محمَّدا أبى أن يَعْرِضَ نفسهَ ، فما كان يُحِبُّ أن يُكلِّمَ أحدًا فى أن يفعلَ له شيئا .

٢

ذهب أبو طالب إلى خديجة ، وقال لها :

ـ هل لكِ أن تستأجرى محمَّدا .

فقالت له خديجة :

ـ لو سألتَ ذاك لِبَعيد بَغيض لَفعلنا ، فكيف وقد سألتَ لحبيبٍ قريب ؟

وأَرسلت خديجةُ إلى محمَّد ، فلما جاءَها ، قالت له :

ـ إنَّى دعانى إلى أن أُرسِلَ إليك ، ما بلغنى من صِدْق حديثِك ، وعِظَمِ أمانَتك ، وكَرَمِ أخلاقِك ، وأنا أُعطيك ضِعفَ ما أعطِى رجلا من قومِك .

وقَبِل محمَّدٌ أن يَعملَ فى تجارةِ خديجة ، وقَابلَ عمَّه أبا طالب ، وذكرَ له ذلك ، فقال له عمُّه :

ـ إن هذا الرِّزقَ ساقه اللّه إليك .

٣

تأهَّب محمَّدٌ للخروجِ فى تجارةِ خديجة ، مع عبدِها مَيْسرَة ، فجاء أعمامُه يودِّعونَه ، ويُوَصُّون به الرِّجال . كانت هذه أوّلَ مرَّةٍ يخرجُ فيها وحدَه . وسارت القافلةُ ليالىَ وأيّاما ، ومحمَّدٌ وميسرةُ يتحدَّثان ، فيُعْجَبُ ميسرةُ بحديثِ محمَّد ، وحسنِ أخلاقِه ، وكانت الأيامُ تَزيدُه قُربا من نفسه .

ووصلتِ القافلةُ إلى سُوقِ بُصْرَى ، فراح محمَّدٌ وميسرةُ يبيعان تجارةَ خديجة ، فكان بين رجل وبين محمد ، اختلافٌ فى سِلْعة ، فقال له الرَّجل :

ـ احلِف باللّاتِ والعُزَّى .

فقال محمَّد :

ـ ما حلَفتُ بهما قَطّ .

فقال له الرَّجل ، وهو ينظر إليه فى دَهَش ، فالعربُ جميعا يحلفونَ بهما :

ـ القولُ قولُك .

لم يعارض الرَّجلُ محمَّدا ، لأنه فَطَنَ إلى أنّه يختلفُ عن هؤلاء التُّجَّارِ الّذين يحلِفونَ بالأصنام ، ويَكْذبون فى قَسَمِهم .

باع الرجالُ ما معهم ، وقد ربِحوا ربحًا عظيما ، فجاءَ ميسرةُ إلى محمَّد ، وقال له وهو فرحان :

ـ يا محمد ، اتَّجَرْنا لخديجةَ سنين ، فَمَا ربِحنا ربحا قطُّ أكثَر من هذا الربحِ على وجهِك .

٤

وقفتْ خديجةُ في غُرفةٍ عاليةٍ تنتظر ، فرأت الجمالَ والحميرَ والبغالَ قادمةً من بعيد ، وقد ارتفع غُبارُها ، فعرفتْ أنَ قوافلَها عائدةٌ من الشام ، فقد حانَ وقتُ عَودتِها .

كانت القوافلُ القادِمةُ هي قوافلَ خديجة ، يسير في مقدَّمِها محمَّدٌ وميسرة ، فالتفت ميسرةُ إلى محمَّدٍ وقال :

ـ هل لك أن تسبقَني إلى خديجة ، فتُخبرَها بما صنع اللّه تعالى على وجهك ؟

فتقدَّم محمَّد ، وكان الوقتُ ظهرا وخديجةُ واقفةٌ في غُرْفَتِها تنظر ، فلما رأتْه وهو راكب على جملِهِ عرفَتْه ، فاستعدَّت لاستقباله .

دخل مُحَمَّدٌ عليها وسيمًا جميلا ، وراح يَقُصُّ عليها ما فعلَه في الرِّحلة ، ويُخبرُها بما ربحوا ، فتُصغِي إليه وهي مُنشرحة ، تحسُّ قلبَها يَتفتَّحُ له .

ولما انتهى من حديثِهِ ، قالت له :

ـ أينَ مَيْسرة ؟

فقال مُحَمَّد :

ـ خلَّفتُه في الصَّحْراء .

فقالت له خديجة :

ـ عَجِّل إليه ، ليعجِّلَ بالإقبال .

أخبرها محمد بما رَبحت ، وهو ضِعفُ ما كانت تربح ؛ لم تكنْ تُريد ميسرةَ لتسمعَ منه أخبارَ التِّجارة ، بل كانت تُريده ليقُصَّ عليها أخبار مُحَمَّد ، وما فعله في رحلته . ؟

٦

كَانت خديجةُ فى الأربعينَ من عمرها ، وكَان الناس يَدْعونَها « بالطّاهرة » ، و « سيدةَ قُريش » ، وكَانت جميلة ، بيضاءَ تميلُ إلى السِّمَن ، وكَان شعرُها أسودَ ناعما ، وعيناها واسعتين ، عرض عليها أشرافُ قريش أن يتزوّجوها فرفضتهم ، لأنها لم تجدْ فيهم رجلاً كُفئا لها ، ولكنها لما رأت محمدا أحبته ، وفكّرت فى أن تتزوّجه ، ولكن كيف تفاتحُه فى هذا الأمر ؟

كان محمَّدٌ وميسرةُ يخرجان معا فى تجارتِها ، فتوطّدت بينهما الصَّداقة ، فرأتْ خديجةُ أن تُرْسلَ إليه مَيْسرة ، يفاتحُه فى أمرِ زواجها ، فجاء ميسرةُ إلى محمّد ، وقال له :

ـ يا محمَّد ، ما يمنعُك أن تتزوّج

فقال له محمَّد :

ـ ما بيدى ما أتزوَّج به .

فقال له ميسرة :

ـ وإن كُفِيتَ ذلك ، ودُعِيتَ إلى المالِ والجمال ، والشَّرفِ والكِفاية ، ألا تُجيب ؟

قال له محمَّد :

ـ فمنْ هى ؟

قال ميسرة :

ـ خَديجة .

فقال محمد ، وهو لا يكادُ يُصدِّق :

ـ وكيف لى بذلك ؟ !

فقال له ميسرة :

ـ أنا أفعل !!

٧

ذكر مَيْسَرَةُ لخديجةَ أنه كلَّم محمَّدا فى أمر زواجِه منها ، وأنَّه رحَّب بهذا الزَّواج ، فرضِيت خديجة ، وأرسلت إلى محمد :

ـ يا بنَ عمّ ، إنى قد رغِبت فيكَ لقرابتِك ، وشرفِك فى قومِك ، وأمانتِك وحسنِ خُلقِك ، وصدقِ حديثِك .

كانَت خديجةُ قريبةَ محمَّد ؛ كان قصىٌّ جدَّه وجدَّها .

واتَّفَقَتْ معه على ساعةٍ يأتى فيها مع أَعمامِه ، لِيُتمَّ الزواج ، وفى الساعةِ التى جُعِلَتْ مَوْعِدا ، جاء محمَّدٌ وعمُّه أبو طالب ، وحمزةُ بن عبدِ المطَّلب ، وأشرافُ قريش ، ودخلوا فوجدوا أهلَ خديجةَ ينتظرونهم .

قام أبو طالب ، وقال :

- إنَّ ابنَ أخى هذا ، محمَّدُ بنُ عبدِ اللّه ، لا يُوزَنُ به رجلٌ إلا رجَحَ به شَرفًا ونُبلا ، وفضلاً وعقلا ، وإن كان فى المالِ قِلّ ، فإن المالَ ظِلٌّ زائل ، وقد خطبَ إليكم رغبةً فى كريمتِكم خديجة .

فقام ورقة بنُ نوفلَ - وكان قريبَ خديجة - وقال :

- اشهَدوا علىَّ معاشرَ قريش ، أنّى قد زَوجتُ خديجةَ بنتَ خُوَيْلد ، من مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللّه .

فقال أبو طالب ، لأنه كان يُريد أن يسمعَ القَبولَ من أقربِ رجل إليها :

- قد أحببتُ أن يَشْرَكَكَ عمُّها .

فقام عمُّها ، وقال :

- اشهَدوا علىَّ معاشرَ قُريش ، أنّى قد زوجتُ خديجةَ بنتَ خُويْلد ، من محمَّدِ بنِ عبدِ اللّه .

وقامَ الرجالُ إلى الوليمةِ التى أعدَّها محمد ، وأمرت خديجةُ جواريَها أن يرقصنَ ويضربنَ بالدُّفوف . وتم زواجُ محمدٍ الأمين ، بخديجةَ الطاهرة ، سيدةِ قريش .

٨

واتفقت قريشٌ على تجديدِ الكعبة ، فجمعتِ القبائلُ من قريشٍ الحجارةَ لبنائها ـ كلٌّ قبيلةٍ تجمعُ على حِدَة ـ ثم بَنوها ، حتى بلغَ البنيانُ موضعَ الحجرِ الأسود ، فاختلفوا : كانت كلُّ قبيلةٍ تُريد أن يكونَ لها شرفُ وضعِه ، وزاد الاختلافُ حتّى استعدتِ القبائلُ للقتال .

واجتمع أشرافُ قريشٍ فى الحرم ، وراحوا يتشاورونَ فيما يفعلونه ، حتى لا تقومَ الحربُ بينهم ، فقال رجلٌ منهم :

ـ يا معشرَ قريش ، اجعلوا بينكُم فيما تختلفونَ فيه أوَّلَ من يدخلُ من بابِ المسجد ، يقضى بينكم فيه .

فقبلوا وانتظروا أوَّلَ من يدخل ، فكانَ أوَّلَ من دخلَ محمَّدُ بن عبدِ اللّه ، فصاحوا فرِحين :

ـ هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمَّد .

وأخبروه الخبر ، فقال :

ـ هلُمَّ (هاتوا) إلَىَّ ثوبا .

فجاءوا بثوب ، فأخذ محمَّدٌ الحجرَ الأسود ، فوضعه فى الثوبِ بيدِه ، ثم قال :

ـ لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب ، ثم ارفعوه جميعا .

فأخذتْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من زوايا الثوب ، ورفعوه بينهم ، حتى إذا بلغوا به موضعَه رفعه ، ووضعه بيده ، وبنى عليه .

رضيت قبائلُ قريش بما فعل ، أشركهم جميعًا فى شرف رفعِ الحجرِ الأسود ، دون حربٍ أو قتال ، ونَجَّاهم برجَاحَةِ عقلِه من شرٍّ مُستطير ، فقد كانت الحروبُ تَنْشِبُ لأتفهِ الأسباب .